﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾ [المجادلة: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

عِلمُهُ تعالى بكلِّ شيءٍ حقيقةٌ مُؤكَّدة

لمّا قالَ تعالى في الآيةِ السّابقةِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة: 6] أكَّدَ هنا كونَهُ عالمًا بكلِّ المعلوماتِ[1].

إقامةُ الدَّليلِ على شُمولِ عِلْمِهِ تعالى

ولمّا كانَ الإخبارُ عن إحاطةِ علمِهِ تعالى وشمولِ قدرتِهِ يحتاجُ إلى دليلٍ عندَ غيرِ المؤمنينَ - فقد كانَ العربُ يُنكِرونَ أنْ يَسَعَ النّاسَ كلَّهم إلهٌ واحدٌ - بيَّنَ تعالى هنا أنَّ علمَهُ محيطٌ بكلِّ شيءٍ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّجۡوَىٰ﴾: (نجو) أصلٌ يدلُّ على كَشْطٍ وكَشْفٍ[3]، وانفصالٍ مِنَ الشَّيءِ، ومِنْ ذلكَ قولُهم: نجا فلانٌ مِنْ فلانٍ، وأنجيتُهُ ونجَّيتُهُ[4]، والنَّجْوةُ: المكانُ المرتفعُ مِنَ الأرضِ[5]. والمرادُ بالنَّجْوى هنا: التَّحدُّثُ سِرًّا[6]، وهي مأخوذةٌ مِنَ النَّجْوةِ؛ لأنَّ المُتَسارَّينِ يَخلوانِ وحدَهما بنَجْوةٍ مِنَ الأرضِ، أو لأنَّ السِّرَّ يُصانُ، فكأنَّهُ رُفِعَ مِنَ الظُّهورِ إلى الخَفاءِ[7].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 489.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 360 - 361.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نجو).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نجو).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (نجو).
(6) القاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 167.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 217.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حـالُ المخلـوقِ لا يَخفـى على الخالِقِ العظيم

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن سَعَةِ علمِهِ، فيقولُ: ألم تعلمْ - يا محمَّدُ، أو أيُّها المخاطَبُ كائنًا مَنْ كانَ - أنَّ اللهَ يَعلمُ كلَّ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ، لا يخفَى عليهِ صغيرٌ مِنْ ذلكَ ولا كبيرٌ، ما يكونُ مِنْ مُسارَّةِ ثلاثةٍ مِنْ خلقِهِ إلّا هو رابعُهم، يَسمَعُ سرَّهم ونَجْواهم، ولا يخفَى عليهِ شيءٌ مِنْ أسرارِهم، وما يكونُ مِنْ نجوَى خمسةٍ إلّا هو سادسُهم كذلكَ، ولا أقلَّ مِنْ ثلاثةٍ ولا أكثرَ مِنْ خمسةٍ إلّا هو معهم بعلمِهِ إذا تناجَوا في أيِّ موضعٍ كانوا، ثمَّ يُخبِرُ يومَ القيامةِ هؤلاءِ المُتناجينَ وغيرَهم بما عملوا مِنْ عملٍ، فهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الآية:

شُـمـولُ علـمِهِ تعالى لهُ دَلائلُ كثيرة

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ، جيءَ بهِ للاستشهادِ على شُمولِ شهادتِهِ تعالى[2]. وفيهِ أيضًا تخلُّصٌ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: 6] إلى ذكرِ علمِ اللهِ بأحوالِ المنافقينَ وأحلافِهم اليهودِ؛ فقد كانَ المنافقونَ يُناجي بعضُهم بعضًا ليَرى المسلمونَ مودَّةَ بعضِ المنافقينَ لبعضٍ؛ فإنَّ المنافقينَ بتَناجيهم يُظهِرونَ أنَّهم طائفةٌ أمرُها واحدٌ، وكلمتُها واحدةٌ[3].

تعيينُ المُخاطَبِ بقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

النَّبيُّ ﷺ يُدرِكُ صفاتِ اللهِ حَقَّ الإدراك

الخطابُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للنَّبيِّ ﷺ[4]؛ إذ لا يَفهَمُ ذلكَ حقَّ فهمِهِ غيرُهُ[5].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان، ص: 237 - 23/ 236، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 41، 42.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 218، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 217.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 25.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 361.

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الخطابُ لكلِّ مَنْ يَصلُحُ أنْ يُخاطَبَ[1]، وكلِّ مَنْ تصحُّ منهُ الرُّؤيةُ.

دَلائلُ شُمولِ عِلْمِهِ تعالى ظاهرةٌ لكلِّ عاقل

غرضُ الاستفهامِ في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

الاستفهامُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لإنكارِ النَّفيِ وتقريرِ المَنْفيِّ، وحاصلُهُ: قد علمتَ ذلكَ علمًا يقينيًّا. والجملةُ تقريرٌ لقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المجادلة: 6]، واستشهادٌ على شُمولِ علمِهِ تعالى[2].

تقريرُ المُخاطَبِ بسَعَةِ عِلْمِ الله

بلاغةُ التَّعبيرِ عن العِلْمِ بالرُّؤْية:

الرُّؤيةُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ علميَّةٌ؛ لأنَّ علمَ اللهِ تعالى لا يُرَى[3]، والمعنى: ألم تعلمْ، وإنَّما أُطلِقَ لفظُ الرُّؤيةُ على هذا العلمِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ العلمَ بذلكَ لشدَّةِ وضوحِهِ ووضوحِ الدَّلائلِ عليهِ كالرُّؤيةِ بالعينِ[4]، وأنَّ علمَهُ ﷻ بما في السَّماواتِ وما في الأرضِ مُنزَّلٌ منزلةَ المحسوسِ.

المَعقولُ الَّذي اتَّضَحَتْ دَلائلُهُ يُنزَّلُ مَنزِلةَ المحسوس

غرضُ التَّوكيدِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾:

أُكِّدَ قولُهُ ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بـ﴿أَنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ علمَهُ ﷻ بما في السَّماواتِ وما في الأرضِ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ، وفي ذلكَ مَزيدُ تقريرٍ لشمولِ علمِهِ تعالى، ودفعٌ لإنكارِ الكفرةِ أن يَسَعَ العالَمَ إلهٌ واحدٌ.

شُمولُ علمِهِ تعالى يقينيٌّ

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ على المُسنَدِ الفِعليّ:

قُدِّمَ المُسندُ إليهِ على الخبرِ الفعليِّ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ

العِلْمُ الشّامِلُ مَخصوصٌ بِهِ تعالى

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 26.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 489، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 361، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 218.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ[1]، والمعنى: أنَّ اللّٰهَ وحدَهُ يعلمُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ، وأمّا غيرُهُ فعلمُهُ ضعيفٌ قاصرٌ.

بلاغةُ إيثارِ اسمِ الجلالة:

العظيمُ سبحانَهُ مُتَّصفٌ بصفاتِ الكمال

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِهِ ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ الكمالِ كلِّها[2]، ومنها العلمُ الشّاملُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ، فيناسبُ مقامَ تقريرِ شُمولِ علمِهِ ﷻ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ في ﴿يَعۡلَمُ﴾:

تَعَلُّقُ عِلْمِ اللهِ بكلِّ معلوم

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ بالنِّسبةِ للمعلوم[3]؛ بمعنى: أنَّ كلَّ معلومٍ يَحصُلُ ويتجدَّدُ فعلمُهُ سبحانَهُ يتعلَّقُ بهِ، وإلّا فعلمُهُ سبحانَهُ لا يتجدَّدُ في ذاتِهِ.

دلالةُ ﴿مَا﴾ في المَوضِعَين:

كُلُّ مَعلومٍ تحتَ سُلطانِ عِلْمِ اللهِ

﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ موصولةٌ تفيدُ العمومَ، والمعنى: يعلمُ جميعَ ما في السَّماواتِ وجميعَ ما في الأرضِ مِنَ المُبصَراتِ والمسموعاتِ، كُلّياتِ ذلكَ وجُزئيّاتِهِ، لا يغيبُ عنهُ تعالى شيءٌ منهُ[4].

بَراعةُ التَّغليبِ في استِعمالِ ﴿مَا﴾:

تَغليبُ غيرِ العاقِلِ على العاقِلِ

في إيثارِ استعمالِ ﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ تغليبٌ في الموضعينِ لغيرِ العاقلِ على العاقلِ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 361.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 194، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 361، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 169، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 26.

الَّذي تُستعمَلُ فيهِ (مَنْ)[1]؛ لأنَّ غيرَ العاقلِ أكثرُ، وفي ذلك التَّغليبِ أيضًا تهاوُنٌ بالمعلوماتِ في مَقامِ القُدرةِ والسُّلطانِ.

معنى ﴿فِي﴾ في المَوْضِعَين:

عُبِّرَ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ السَّماواتِ والأرضَ مَحَلٌّ لِما فيهما مِنَ المسموعاتِ والمُبصَراتِ، وغيرِ ذلكَ ممّا يعلمُهُ اللهُ ﷻ، والسَّماواتُ والأرضُ أيضًا مِنْ جملةِ معلوماتِهِ تعالى.

السَّماواتُ والأرضُ مَحَلُّ المَعلومات

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ للجنسِ المُستغرِقِ لجميعِ أفرادِهِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ بيانِ شمولِ علمِهِ تعالى للسَّماواتِ والأرضِ وما فيهما، وذلكَ يَستلزِمُ الحملَ على العمومِ المُستغرِقِ[2].

السَّماواتُ والأرضُ وما فيهما تحتَ سُلطانِ عِلْمِهِ تعالى وقُدرتِه

غرضُ تقديمِ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (ما في الأرض):

قُدِّمَ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (ما في الأرضِ) في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لأنَّ شمولَ علمِهِ تعالى لِما في السَّماواتِ أعجبُ وأدلُّ على القدرةِ؛ لبُعدِها عن المخاطَبينَ وعدمِ إدراكِهم ما فيها مِنَ الأسرارِ والخفايا، كما أنَّ السَّماواتِ أوسعُ وأكبرُ من الأرضِ بكثيرٍ، وما الأرضُ بما فيها إلّا كذَرَّةٍ مُقارَنةً بالسَّماواتِ وما فيهنَّ.

عِلْمُ جميعِ ما في السَّماواتِ أعجَبُ مِن عِلْمِ جميعِ ما في الأرضِ

نكتةُ عطفِ (ما في الأرضِ):

عُطِفَ (ما في الأرضِ) على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لتأكيدِ شُمولِ علمِهِ تعالى، وأنَّهُ لا يَقتصِرُ على بعضِ خلقِهِ دونَ بعضٍ.

عِلْمُهُ تعالى لا يَقتَصِرُ على بعضِ الخَلْقِ دونَ بعض

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 361، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.

سرُّ تكرارِ (ما) في ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

عَظَمةُ المعلومِ وكثرتُهُ دليلٌ على عَظَمةِ علمِ اللهِ سبحانه

لمّا كانَ المقامُ لبيانِ إحاطةِ علمِ اللهِ وشمولِهِ لما في السَّماواتِ وما في الأرضِ أُكِّدَ العمومُ بإعادةِ الموصولِ[1]، فقيلَ: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ولم يُقَلْ: (والأرضِ).

نكتةُ جَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

إفـــرادُ الأرضِ ألْيَـقُ بفصاحةِ القرآنِ

جُمِعَتِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وأُفرِدَتِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ الأرضَ عالَمٌ واحدٌ، ولأنَّ جمعَ الأرضِ: (أرَضونَ) و(أرَضاتٌ) و(أُروضٌ) و(أراضٍ)، والنُّطْقُ بهِ ثقيلٌ، فلا يُناسِبُ فصاحةَ القرآنِ، فاختيرَ المفردُ الأخفُّ.

براعةُ الطِّباقِ بينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

لا يَـغْـزُبُ عن عِلْمِ اللهِ تعالى مِثقالُ ذَرَّةٍ

جُمِعَ بينَ لفظَيِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ رِعايةً لمُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ. وفائدتُهُ هنا التَّنبيهُ على أنَّ الكونَ كلَّهُ مِنْ أعلاهُ إلى أسفلِهِ مشمولٌ بعلمِهِ تعالى، لا يغيبُ عنهُ ﷻ مِثقالُ ذرَّةٍ مِنْ ذلكَ.

عِلَّةُ فَصْلِ ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾:

ذِكـــرُ فَـــرْدٍ مِـن أفرادِ معلوماتِهِ تعالى

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ مُقرِّرٌ لما قبلَهُ مِنْ سَعَةِ علمِهِ تعالى ومبيِّنٌ لكيفيَّتِهِ[2]، وذلكَ بذكرِ فردٍ مِنْ أفرادِ معلوماتِهِ تعالى يخفَى على النّاسِ، وقد يظنُّ الجَهَلةُ أنَّهُ يخفَى على اللهِ أيضًا.

بلاغةُ القصرِ بالنَّفيِ والاستثناءِ:

كلُّ ما يَتَناجَى بِهِ العِبادُ معلومٌ للهِ

القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ في الجُملِ الثَّلاثِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ قصرٌ حقيقيٌّ،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 361.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 218، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 223.

والغرضُ منهُ بيانُ أنَّهُ لا يَعْزُبُ عن علمِ اللهِ ﷻ شيءٌ ممّا يتناجَى بهِ العبادُ، والاستثناءُ هنا استثناءٌ مِنْ أعمِّ الأحوالِ[1]؛ أي: ما يكونُ مِنْ نجوَى ثلاثةٍ في حالٍ مِنَ الأحوالِ إلّا هو رابعُهم إلخ.

غرضُ الإخبارِ بجُملةِ النَّجْوى:

وُجـوبُ مُراقَبةِ اللهِ ﷻ في كلِّ قولٍ وفِعل

المقصودُ مِنَ الإخبارِ بقولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ هو الإنذارُ والوعيدُ[2]، لا إفادةُ مضمونِ الكلامِ فقط، فينبغي على الإنسانِ أنْ يراقبَ اللهَ ﷻ في كلِّ ما يقولُهُ سرًّا وعلانيةً، وفي كلِّ ما يأتي وما يَذَرُ.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿مَا يَكُونُ﴾:

اختِلافُ القِراءاتِ بـالـتَّـذكـيرِ والتَّأنيث

قرأ أبو جعفرٍ: ﴿مَا تَكُونُ﴾ بالتّاءِ، وقرأ الباقونَ: ﴿مَا يَكُونُ﴾ بالياءِ[3]. أمّا الأولى فهي على تأنيثِ النَّجوى، وأمّا الثّانيةُ فهي جَرْيٌ على الأصلِ في تذكيرِ الفعل؛ لأنَّ النَّجوى مؤنَّثٌ مجازيٌّ لا حقيقيٌّ، وللفصلِ بحرفِ الجرِّ الصِّلةِ (مِنْ) بينَ الفعلِ وفاعلِهِ[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ في ﴿يَكُونُ﴾:

اللـهُ تـعـالى لا يَـشـغَـلُـهُ شيءٌ عن شيء

الفعلُ ﴿يَكُونُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ تامٌّ لا ناقصٌ؛ أي: ما يقعُ[5]، والتَّعبيرُ بالمضارعِ لإفادةِ الاستمرارِ والتَّجدُّدِ، وأنَّ أيَّ نجوى تقعُ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ فهي معلومةٌ لهُ ﷻ، الَّذي لا يَشغَلُهُ شيءٌ عن شيءٍ، ولا تَختلِطُ عليهِ الأحوالُ والشُّؤونُ.

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 194.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 26.
(3) ابن الجزري، النّشر: 2/ 385.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 489، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 269.
(5) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 447، وأبو حيان، البحر المحيط: 19/ 125.

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن نَّجْوَىٰ﴾:

عُمومُ النَّجْوى مُؤَكَّد

﴿مِن﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ مزيدةٌ في فاعلِ ﴿يَكُونُ﴾[1]، والغرضُ منها تأكيدُ العمومِ المستفادِ مِنْ وقوعِ النَّكرةِ - وهي ﴿نَّجْوَىٰ﴾ - في سياقِ النَّفي[2].

وجهُ التَّعبيرِ بالمَصْدَرِ ﴿نَّجْوَىٰ﴾:

النَّجْوَى صادِرةٌ عن الثَّلاثةِ، والله محيطٌ بذَوي النَّجْوَى

﴿نَّجْوَىٰ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ مصدرٌ في الأصلِ، فيجوزُ أنْ يكونَ باقيًا على أصلِهِ، ويكونَ مضافًا لفاعلِهِ؛ أي: ما يوجَدُ مِنْ تناجي ثلاثةٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ على حذفِ مضافٍ؛ أي: مِنْ ذَوي نَجْوَى.

النَّجْوَى مَعلومةٌ للهِ تعالى وإنْ بولِغَ في كَتْمِها

ويجوزُ أنْ يكونَ قد أُطلِقَ على الأشخاصِ المُتَناجينَ مبالغةً[3]، وكأنَّهم نفسُ النَّجْوَى، وفي ذلكَ تنبيهٌ على علمِهِ تعالى بالنَّجْوَى وإنْ بُولِغَ في إخفائِها.

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾، ومَوقِعُها من الإعراب:

لا تَكمُلُ النَّجْوى إلّا بثالثٍ يَحفَظُ الأُنْسَ بإدامةِ الاجتِماع

جُرَّ لفظُ ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ بالإضافةِ، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ النَّجوى بمعنى المُتَناجينَ، ويكونَ التَّقديرُ: ما يكونُ مِنْ مُتَناجينَ ثلاثةٍ، فيكون ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ صفةً[4] أو بدلًا. ويجوزُ أنْ يكونَ بدلًا مِنْ (ذَوي) المحذوفةِ أو صفةً لها على القولِ بتقديرِ (ذَوي)[5]. ولا يخفَى ما في الإضافةِ والوصفِ مِنَ التَّقييدِ والتَّخصيصِ، وما في البدلِ مِنَ الإيضاحِ بعدَ الإبهامِ الَّذي يُقرِّرُ المعنى في النَّفسِ بعدَ تشوُّفِها لمعرفتِهِ.

وأوثِرَ لفظُ الثَّلاثة؛ لأنَّ "النَّجوى لا تَكمُلُ إلّا بثالثٍ يَحفَظُ الأُنْسَ

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 268، وابن عادل، اللباب: 18/ 532.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 26.
(3) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 268.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 490، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 194.
(5) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 268.

بإدامةِ الاجتماع؛ لأنَّ الاثنين يَنفرِدان عند عُروضِ حاجةٍ لأحدِهما، ويكونان في التَّناجي والتَّشاوُر كالمُتنازِعَين"[1].

بلاغةُ الحالِ في الجُمَلِ الواقعةِ بعدَ ﴿إِلَّا﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وقولُهُ: ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾، وقولُهُ: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾، كلُّ هذهِ الجملِ الاسميَّةِ بعدَ ﴿إِلَّا﴾ في موضعِ نصبٍ على الحالِ[2]؛ أي: ما يوجَدُ شيءٌ مِنْ هذهِ الأشياءِ إلّا في حالٍ مِنْ هذهِ الأحوالِ، فالاستثناءُ مُفرَّغٌ مِنَ الأحوالِ العامَّةِ[3]. وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّنبيهِ على شمولِ علمِهِ تعالى، وأنَّهُ لا يخفَى عليهِ مِنَ المذكورينَ خافيةٌ.

لا يَخفَى على اللهِ تعالى خافيَة

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في الجُمَلِ الواقعةِ بعدَ ﴿إِلَّا﴾:

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وقولِهِ: ﴿هُوَ سَادِسُهُمْ﴾، وقولِهِ: ﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مضامينَ هذهِ الجملِ حقائقُ ثابتةٌ، لا تتغيَّرُ ولا تزولُ، وفي ذلكَ مزيدُ مُلاءَمةٍ لمقامِ بيانِ شمولِ علمِهِ تعالى.

إحاطةُ اللهِ تعالى بأحوالِهم حقيقةٌ ثابتة

تَوجيهُ كونِهِ تعالى ﴿رَابِعُهُمْ﴾ و﴿سَادِسُهُمْ﴾:

المرادُ مِنْ كونِهِ تعالى رابعًا وسادسًا لهم في قولِهِ سبحانه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ كونُهُ تعالى عالمًا بكلامِهم وضميرِهم، وسرِّهم وعَلَنِهم، وكأنَّهُ تعالى حاضرٌ معهم ومُشاهِدٌ لهم، وهو سبحانَهُ مُتَعالٍ عن المكانِ والمُشاهَدةِ[4]. وحُضورُهُ "بعِلْمِه وقدرتِهِ، كما يكونُ كلٌّ مِن المُتناجينَ عالمًا بنَجْوى البعض، فروْحُ النّجوى العلمُ بالسِّرِّ"[5].

اللهُ ﷻ مُنزَّهٌ عن المكانِ والمُشاهَدةِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 362.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 125، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 269.
(3) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 269.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 276، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 490.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 363.

نكتةُ عطفِ ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾:

اللهُ تعالى وحدَهُ الوِتْر

"لمّا كانَ الثَّلاثةُ قد يُريدُ أحدُهم أنْ يَنفرِدَ بآخرَ منهم، فيصيرُ الثّالثُ وحدَهُ، فإذا كانوا أربعةً دامَ الأُنْسُ بينَهم، ثمَّ لا يُكمِّلُ إلّا بخامسٍ يَحفَظُ الاجتماعَ إذا عَرَضَتْ لأحدِ الاثنينِ حاجةٌ قالَ تعالى: ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾. فالحاصلُ: أنَّهُ ما يكونُ مِنْ وِتْرٍ إلّا كانَ هو ﷻ شافعَ وِتْريَّتِهِ، وأمّا وِتْريَّتُهُ هو سبحانَهُ فقد كانَتْ ولا شيءَ معها أصلًا، وستكونُ ولا حيَّ معها، فلا وِتْرَ في الوجودِ على الحقيقةِ غيرُهُ"[1].

وجهُ تكريرِ حرفِ النَّفي في المَعطوفات:

لا يَفوتُ عِلْمَ اللهِ تعالى شيءٌ يقينًا

تكريرُ حرفِ النَّفي في المعطوفاتِ على المَنْفيِّ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ أسلوبٌ عربيٌّ، ولا سيّما أنّ مع كلِّ معطوفٍ استثناءً[2]، والغرضُ مِنَ التَّكريرِ تأكيدُ النَّفي المُستفادِ مِنْ ﴿مَا﴾ في قولِهِ: ﴿مَا يَكُونُ﴾[3]، وإفادةُ استقلالِ ما دخلَتْ عليهِ (لا)، و"بيانُ أنَّ النَّفيَ يَشمَلُ الأمرينِ الَّذي قبلَهُ والَّذي بعدَهُ معًا، وكُلًّا منهما على حِدَةٍ"[4].

سرُّ تخصيصِ الثَّلاثةِ والخمسةِ بالذِّكْر:

اللهُ تعالى وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْر

تخصيصُ الثَّلاثةِ والخمسةِ بالذِّكرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ إمّا لخصوصِ الواقعةِ؛ فإنَّ الآيةَ نزلَتْ في تناجي المنافقينَ، وكانوا بهذهِ الأعدادِ، وإمّا لأنَّ اللّهَ تعالى وِترٌ يحبُّ الوترَ، والثَّلاثةُ أوَّلُ أوتارِ العدد، أو لأنَّ التَّشاوُرَ لا بدَّ لهُ مِن اثنينِ يكونانِ كالمُتنازِعَينِ، وثالثٍ يَتوسَّطُ بينَهما[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 363.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 27.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 283.
(4) قباوة، المفصل في شرح الجلالين، ص: 1922.
(5) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 194، والنسفي، مدارك التّنزيل، ص: 448 - 3/ 447.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾:

لمّا ذكرَ ﷻ الثَّلاثةَ والخمسةَ على سبيلِ المثالِ عَمَّمَ الحكمَ بعدَ ذلكَ، فقالَ: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ممّا ذُكِرَ كالواحدِ والاثنينِ، ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ كالسِّتَّةِ وما فوقَها[1]. وفي ذلكَ دَفْعٌ لتوهُّمِ أنَّ علمَهُ تعالى يُحيطُ بالقليلِ دونَ الكثيرِ.

عِلْمُ اللهِ تعالى مُحيطٌ بالقليلِ والكثيرِ

بلاغةُ المَجازِ في لفظِ الأدنى:

المرادُ بالأدنى في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ الأقلُّ، بقرينةِ ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾، فهو مجازٌ؛ لأنَّهُ مِنَ الدَّناءةِ لا مِنَ الدُّنوِّ، والدَّناءةُ أقلُّ مرتبةً، فيرادُ بهِ هنا أقلُّ عددٍ؛ لاشتراكِهما في مطلقِ القلَّةِ، أو مجازٌ مرسلٌ بذكرِ المقيَّدِ وإرادةِ المطلقِ، ثمَّ إرادةِ المقيَّدِ الآخرِ[2].

أقَلُّ عددٍ مِنَ المُتناجينَ يَعلَمُهُ اللهُ

غرضُ تقديمِ الأدنى على الأكثرِ:

قُدِّمَ الأدنى على الأكثرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾؛ لأنَّهُ القليلُ، وهو قبلَ الكثيرِ، وأخفَى منهُ[3]، فقُدِّمَ لبيانِ أنَّ اللهَ تعالى محيطٌ بهِ على قلَّتِهِ، فما بالُكَ بما هو فوقَهُ؟!

الأخفَى مُقدَّمٌ على الأظْهَرِ

وَجْهُ إفرادِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أُفرِدَ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ مع أنَّهُ راجعٌ إلى الثَّلاثةِ والخمسةِ - وهما أمرانِ لا أمرٌ واحدٌ - لأنَّهُ بتأويلِ المذكورِ؛ أي: ولا أدنى مِنَ الَّذي ذُكِرَ[4].

القِلَّةُ والكَثْرةُ باعتبارِ المذكورِ سابقًا

تَوجيهُ القِراءاتِ في ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾:

قرأ يعقوبُ: ﴿وَلَا أَكۡثَرُ﴾ بالرَّفعِ، وقرأ الباقونَ: ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾[5].

أمّا قراءةُ الجمهورِ بالجرِّ فعطفٌ على لفظِ ﴿نَّجۡوَىٰ﴾ المجرورِ لفظًا

اختلافُ القِراءاتِ والمعنى واحد

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 363، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، ص: 219 - 8/ 218.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 501.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 363.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 363.
(5) ابن الجزري، النّشر: 2/ 385.

بحرفِ الجرِّ الزّائد، وأمّا قراءةُ يعقوبَ بالرَّفع فعطفٌ على محلِّ ﴿مِن نَّجۡوَىٰ﴾؛ لأنَّ المحلَّ رفعٌ على الفاعليَّة، أو عطفٌ على محلِّ (لا) مع اسمِها في قولِهِ سبحانه: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ﴾، بأنْ جُعِلَتْ (لا) لنفي الجنسِ[1]؛ لأنَّ (لا) مع اسمِها في محلِّ رفعٍ بالابتداء، والمعنى على القراءتينِ واحدٌ.

براعةُ الطِّباقِ بينَ الأدنى والأكثرِ:

في الجمعِ بينَ الأدنى - بمعنى الأقلِّ - والأكثرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ رعايةٌ لمُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ، وفائدتُهُ التَّنبيهُ على أنَّ ما هو في حَدِّ القلَّةِ وما هو في حَدِّ الكثرةِ في علمِ اللهِ تعالى سواءٌ، فعِلمُهُ سبحانه يَشمَلُ كلَّ شيءٍ.

القليلُ والكثيرُ في علمِ اللهِ تعالى سَواء

تَوجيهُ المَعيَّةِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾:

المرادُ بالمعيَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ معيَّةُ العِلمِ؛ أي: أنَّهُ تعالى يعلمُ ما يتناجَونَ بهِ، ولا يخفَى عليهِ ما هم فيهِ[2]؛ لعلمِهِ ما يَجري منهم، وما يَجري بينَهم، ويَلزَمُ مِن إحاطةِ علمِهِ إحاطةُ قُدرتِهِ[3].

مَعيَّةُ اللهِ لخَلْقِهِ بالعِلمِ والقُدرة

فائدةُ الظَّرفِ ﴿أَيۡنَ﴾:

التَّعبيرُ بظرفِ المكانِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ لإفادةِ تعميمِ الأمكنةِ، والمعنى: في أيِّ مكانٍ كانوا ولو تحتَ الأرضِ؛ فإنَّ علمَهُ تعالى بالأشياءِ ليسَ لقُربِ مكانيٍّ حتَّى يتفاوَتَ باختلافِ الأمكنةِ قُربًا وبُعدًا[4]؛ فإنَّه لا مسافةَ بينَهُ وبينَ شيءٍ من الأشياء؛ لأنَّه الَّذي خلَقَ المسافةَ. والحاصلُ: أنَّه سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ من العالَمِ وإن بلَغَ في دِقَّتِهِ إلى ما لا ينقسم، وهو شاهدٌ لذلك كلِّه حفظًا، وعلمًا، وإحاطةً، وحضورًا[5].

كُلُّ الأماكنِ خاضِعةٌ لسُلطانِ عِلمِهِ تعالى

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 194.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 490، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 447.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 364.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 219.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 364.

معنى ﴿مَا﴾ في ﴿أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾:

﴿أَيْنَ مَا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ مركَّبةٌ مِنْ ﴿أَيْنَ﴾ الَّتي هي ظرفُ مكانٍ، و﴿مَا﴾ الزّائدةِ[1] الَّتي تُؤكِّدُ العمومَ المستفادَ مِن ﴿أَيْنَ﴾، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمَقامِ بيانِ إحاطةِ علمِهِ تعالى بمخلوقاتِهِ.

عِلمُهُ تعالى بعُمومِ الأماكنِ لا ريبَ فيه

سِرُّ تَخْصيصِ المكانِ بالذِّكرِ دونَ الزَّمانِ:

ذُكِرَ المكانُ دونَ الزَّمانِ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾؛ لأنَّ العُمومَ في المكانِ يَستلزِمُ العمومَ في الزَّمانِ، ولأنَّ المكانَ أظهرُ في الحِسِّ[2].

عُمومُ المكانِ يَستلزِمُ عُمومَ الزَّمانِ

سِرُّ العَطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

اختيرَ العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ - وهي للتَّراخي الرُّتْبيِّ - لأنَّ تَنْبِئَتَهم يومَ القيامةِ بما تكلَّموا وما عملوا في الدُّنيا أدَلُّ على سَعَةِ علمِ اللهِ مِنْ علمِهِ بحديثِهم في الدُّنيا؛ لأنَّ مُعظَمَ علمِ العالِمينَ يَعتَريهِ النِّسيانُ في مِثلِ ذلكَ الزَّمانِ مِنَ الطُّولِ وكثرةِ تدبيرِ الأمورِ في الدُّنيا والآخرةِ[3]، أمّا علمُهُ سبحانَهُ فلا يَعتَريهِ شيءٌ مِنْ ذلكَ.

لا يَضِلُّ ربّي ولا يَنسَى

وعليه فليس عجبًا أنْ "يَضبِطَ عليهم حَرَكاتِهم وسَكَناتِهم من أقوالِهم وأفعالِهم وأحوالِهم، ويَحفَظَها على طولِ الزَّمانِ، كما كان حافظًا لها قبلَ خَلْقِها في أزَلِ الأزَلِ"[4].

غرضُ الإخبارِ بـ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾:

الإخبارُ بقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ فيهِ وعيدٌ لهم بأنَّ نَجْواهم إثمٌ عظيمٌ، فنُهيَ عنها، ويَشمَلُ هذا تحذيرَ مَنْ يُشارِكُهم[5]، وذلكَ أنَّ هذهِ التَّنْبِئةَ للتَّنديمِ وزيادةِ التَّقريعِ

التَّحذيرُ مِنَ التَّناجي بما يُخالِفُ الشَّرْعَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 27.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 364.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 27.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 366.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 27.

والتَّوبيخِ على مرأًى ومَسْمَعٍ مِنْ أهلِ المحشرِ، فيكونُ ذلكَ أنكى وأشدَّ إيلامًا لهم[1].

نكتةُ التَّعبير بالفعلِ ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ مُضارِعًا مُضعَّفَ العَين:

أنْـبـاءُ الآخـرةِ عظيمةُ الشَّأْن

اختيرتِ التَّنبئةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ﴾ دونَ غيرِها مِنَ (الإخبارِ والإعلامِ ونحوِ ذلكَ)؛ لأنَّ النَّبأ في الأصلِ هو الخبرُ عظيمُ الشَّأنِ، فيفيدُ الكلامُ تعظيمَ شأنِ أخبارِ الآخرةِ، والمعنى: يُخبِرُ أصحابَها إخبارًا عظيمًا[2]، فيكونُ ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ قد أفادَ المبالغةَ في الإخبارِ بمادَّتِهِ وصيغتِهِ الَّتي جاءَتْ بتضعيفِ العين.

التَّنبِئَةُ لم تَقَعْ بَـعْـدُ، وهـي حَـدَثٌ عظيمٌ مُخيف

وعُبِّرَ عن التَّنْبِئةِ بصيغةِ المضارعِ؛ لأنَّها أمرٌ مستقبَلِيٌّ يقعُ يومَ القيامةِ كما صرَّحَتْ بذلكَ الآيةُ، والمضارعُ يَصلُحُ للدَّلالةِ على الاستقبالِ، وقد تعيَّنَ لذلكَ هنا بالقرينةِ. ويُحتمَلُ أنْ تكونَ المُضارَعةُ لتصويرِ التَّنبئةِ بصورتِها العظيمةِ الَّتي تُربّي المهابةَ في النُّفوسِ، وتُقوّي التَّرهيبَ والوعيدَ.

معنى الباءِ في ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾:

العَمَلُ مُتعلَّقُ التَّنْبِئَة

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ﴾ لتعديةِ الفعلِ إلى مفعولِهِ الثّاني، فيفيدُ الكلامُ أنَّ أعمالَهم هي مُتعلَّقُ التَّنبئةِ والإخبارِ.

دلالةُ (ما) في ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾:

سُرْعةُ حِسابِهِ تعالى وسَعَةُ عِلْمِه

(ما) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ﴾ موصولةٌ وعائدُها محذوفٌ؛ أي: بالَّذي عَمِلوهُ، والمرادُ منها إفادةُ العموم، فيفيدُ الكلامُ التَّنبئةَ بجميعِ الأعمالِ، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّنبيهِ على سَعَةِ علمِهِ تعالى وسرعةِ حسابِهِ لخلقِهِ.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 11.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 366.

دلالةُ الماضي في ﴿عَمِلُواْ﴾:

الحياةُ الدُّنيا دارُ السَّعيِ والعَمَل

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾؛ لأنَّ التَّنبئةَ تكونُ بأعمالٍ صدرَتْ عنهم في الحياةِ الدُّنيا الَّتي هي دارُ العملِ، وقد مَضَتْ هذهِ الأعمالُ وانقَضَتْ، وفي الماضي إيماءٌ إلى تحقُّقِ صدورِها عنهم، وأنَّهُ أمرٌ لازمٌ لهم، فلا يَسَعُهم الإنكارُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعَمَلِ دونَ غيرِه:

لا عُذْرَ لِمَنْ عَمِلَ بقَصْدِهِ وإرادتِهِ في التَّبرُّؤِ مِن عَمَلِه

عُبِّرَ بالعَمَلِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ دونَ غيرِهِ مِنَ (الفعلِ والصُّنعِ ونحوِهما)؛ لأنَّ العملَ ما يكونُ بقصدٍ مِنَ العاملِ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ ما صدرَ عنهم في الدُّنيا ونُبِّئُوا بهِ قد صدرَ بإرادتِهم، وفي ذلكَ مزيدُ تسجيلٍ عليهم وقطعٌ لمَعذرَتِهم.

بلاغةُ التَّقْييدِ بـ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

يومُ القيامةِ يومُ الحِسابِ والجَزاء

قُيِّدَتِ التَّنبئةُ بقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، لأنَّهُ يومُ الحسابِ والجزاءِ، وهو المرادُ الأعظمُ مِنَ الوجودِ؛ لإظهارِ الصِّفاتِ العُلا فيهِ أتمَّ إظهارٍ[1]، وفي ذكرِهِ مِنَ المَهابةِ والتَّهويلِ والتَّرويعِ ما لا تحيطُ بهِ العبارةُ.

عِلَّةُ فَصْلِ جُملةِ الفاصِلة:

مَنْ أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلْمًا نَبَّأَ العامِلينَ بأعمالِهم

فُصِلَ قولُهُ تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ تذييليٌّ تعليليٌّ لهُ ومُؤكِّدٌ لهُ؛ فتَنبِئَتُهم بما عملوا إنَّما تكونُ مِنَ العليمِ بكلِّ شيءٍ ﷻ[2].

نكتةُ توكيدِ جُملةِ الفاصِلة:

عِلْمُهُ تعالى بكلِّ شيءٍ مَحَطُّ الاهتمامِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ؛ للاهتمامِ بهِ، وإلّا فإنَّ المخاطَبَ - وهو النَّبيُّ ﷺ - لا يَتردَّدُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 366.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 366، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 28.

في ذلكَ[1]. وأمّا إنْ كانَ الخِطابُ لكلِّ مَنْ تَتَأتَّى منهُ الرُّؤيةُ فيُحتمَلُ أنْ يكونَ التَّوكيدُ للاهتمامِ ودفعِ إنكارِ مَنْ يُنكِرُ ذلكَ منهم.

غرضُ الإخبارِ بجُملةِ الفاصِلة:

مَنْ عَلِمَ أنَّ اللهَ مُحيطٌ بِهِ التَزَمَ شَرْعَهُ وأحكامَه

الإخبارُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ للتَّحذيرِ مِنَ المعاصي والتَّرغيبِ في الطّاعاتِ[2]، لا لمُجرَّدِ الإخبارِ؛ إذ المُخاطَبُ يَعلَمُ أنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بكلِّ شيءٍ، وهذا التَّعريضُ بالوعيدِ يَدُلُّ على أنَّ النَّهيَ عن التَّناجي كانَ سابقًا على نزولِ هذهِ الآيةِ والآياتِ بعدَها[3].

سرُّ إظهارِ اسمِ الجَلالةِ:

مَنْ قَدَرَ العظيمَ حَقَّ قَدْرِهِ خافَهُ وأطاعَه

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (إنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ)؛ لتقدُّمِ ذكرِ اسمِ الجلالةِ، ولكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾؛ لتربيةِ المَهابةِ وتقويةِ الوعيدِ والتَّحذيرِ الَّذي يشتملُ عليهِ الكلامُ، فضلًا عمّا يدلُّ عليهِ اسمُ الجلالةِ مِنْ صفاتِ الجلالِ والكمالِ، ومنها العلمُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ. يُزادُ على ذلكَ ما في الإظهارِ مِنْ تأكيدِ استقلالِ الجملةِ التَّذييليَّةِ الجاريةِ مَجْرَى الأمثالِ.

معنى الباءِ في ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾:

عِلْمُ اللهِ تعالى مُتعلِّقٌ بكلِّ شيءٍ

الباءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ للتَّعديةِ، وهي مُتعلِّقةٌ بـ﴿عَلِيمٌ﴾، فيُفيدُ الكلامُ أنَّ الأشياءَ هي مُتعلَّقُ علمِهِ تعالى.

نكتةُ إضافةِ (كلّ) إلى ﴿شَيۡءٍ﴾:

تأكيدُ سَعَةِ عِلْمِهِ تعالى تأكيدًا بعدَ تأكيد

إضافةُ (كلّ) إلى ﴿شَيۡءٍ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ لتأكيدِ عُمومِ كلمةِ ﴿شَيۡءٍ﴾، وبيانِ شمولِها لِما ذُكِرَ وما لم يُذكَرْ؛ لأنَّ نسبةَ ذاتِهِ المُقتضيةِ للعلمِ إلى الكلِّ سواءٌ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 28.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ص: 491 - 29/ 490.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 28.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 219.

غرضُ تقديمِ ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾:

بـيـانُ شُـمـولِ عِلْمِهِ تعالى أولى وأنسَبُ للمَقام

قُدِّمَ القيدُ ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ على الخبرِ ﴿عَلِيمٌ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ الَّذي يَتَعلَّقُ بِهِ علمُ اللهِ ﷻ، والمسارعةِ في إثباتِ هذا التّعلُّقِ، وذلكَ أنسَبُ لمقامِ الإخبارِ بإحاطةِ علمِهِ سبحانَهُ[1]، ولِما في تأخيرِ ﴿عَلِيمٌ﴾ مِنْ رِعايةِ تلاؤمِ الفواصلِ.

نكتةُ صيغةِ (فَعيلٍ) في ﴿عَلِيمٌ﴾:

اتِّـصـافُـهُ تعالى بالعِلْمِ اتِّصافًا بليغًا

جيءَ بصيغةِ (فَعيلٍ) في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ للمبالغةِ في اتِّصافِهِ تعالى بالعلمِ؛ أي: بالغُ العلمِ، فهو ﷻ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وهو على كلِّ شيءٍ شهيدٌ[2]، وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ.

بلاغةُ افتِتاحِ الآيةِ واختِتامِها بالعِلْمِ:

التَّـنْـصيصُ على سَعَةِ عِلْمِ اللهِ فـي الـفـاتِـحـةِ والخاتِمة

مِنْ لطائفِ هذهِ الآيةِ أنَّها افتُتِحَتْ بذكرِ العلمِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، واختُتِمَتْ بذكرِهِ أيضًا في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[3]، وفي ذلكَ مِنْ تأكيدِ سَعَةِ علمِهِ تعالى ما لا يخفَى، وفيهِ أيضًا تجاذُبُ أطرافِ الكلامِ، وأخْذُ بعضِها بحُجَزِ بعضٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّجْوَى والسِّرّ:

الـكـلامُ الخَفيُّ الَّـذي يـكـونُ بـينَ الـنّـاسِ لا يَخفى على الله سبحانه

النَّجْوَى: الكلامُ الخَفيُّ الَّذي تُناجي بهِ صاحبَكَ، كأنَّكَ ترفعُهُ عن غيرِهِ، والسِّرُّ: إخفاءُ الشَّيءِ في النَّفسِ[4]. وقد عُبِّرَ بالنَّجْوى هنا؛ لأنَّ المرادَ الكلامُ الخَفيُّ الدّائرُ بينَ اثنينِ فأكثرَ، لا الكلامُ الخَفيُّ في النَّفْسِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 366.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 366.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 219.
(4) العسكري، الفروق: 1/ 533.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"